عرض الكتـــــب

سوزان كينيون، المرأة السودانية (The Sudanese Woman)
الخرطوم: (منشورات كلّية الدراسات العليـــــــــــــا
بجامعة الخرطـوم، ١٨٥ صفحة

يحتوى هذا الكتاب على سبعة فصول وهى فى الواقع أطروحـــات قدّمت من طلاّب الدراسات العليا بجامعة الخرطوم فى فترة السبعينات . وقد أشارت المحرّرة فى تقديمها للكتاب الى أنّ الغرض الأساسى منـــه هو محاولة وصف بعض نشاطات المرأة السودانية وجوانب حياتهـــــا المختلفة . وهذه المحاولة تصادف تزايد نطاق الدعوة للاهتمـــــام بشئون المرأةوضرورة توثيق المعلومات عنها . فالموجود من مـــادة علمية عن الحياة الاجتماعية فى السودان يهتم فى الغالب الأعم بحياة الرجل،وتظل حياة المرأة لا تنال غير النذر اليسير من اهتمـــــام الباحثين فى هذا المجال.

بواقع هذه الخلفية فإنّ المقالات التى بين أيدينا تمثـــــل محاولات رائدة فى مجال دراسات المرأة ، كما أنّ المعلومات الميدانية التى تضمّنتها هذه المقالات ذات قيمة عالية . وغير خاف بالطبـــع أنّ هذه المقالات لا تعكس كل جوانب حياة المرأة السودانية نظرا لتعـدّد الثقافات السودانية ووجود الاختلافات الاقتصادية والاجتماعية بيـــن المجموعات السودانية . ولكنّنا نأمل أن تكون هذه المقالات فاتحـــة باب لبحث أوضاع المرأة السودانية من شتى الجوانب فى ظل ما طـــرأ عليها من تغيّرات خلال العقدين الأخيرين.

فى الفصل الأول من الكتاب تحدّث الحاج حمد عن دور المرأة فى السياسة فى القرون الوسطى فى السودان ونوّه الكاتب الى أهمّية دور المرأة فى الأوضاع السياسية فى الفترات التاريخية المختلفة التـى شملت مملكة نبتة والعهد المروى وفترة الممالك الاسلامية . ففى هـذه الفترة كان النسب الأموى هو الطريق الى تقلّد المناصب السياسية عن طريق الوراثة وعليه فقد وجدنا المرأة أسهمت فى الحياة السياسيـة ولعبت أدورا مميّزة .

انعكست أهمية دور المرأة فى عهد الفونج حيث اشتهر الملـوك ورجال الدين بأسماء أمّهاتهم كما كان لصلة القرابة عن طريـــق الأم أهمّيتها فى التعليم الدينى. فقد يسّرت تلك القرابة العلم لأخـــوال

الملوك ورجال الدين كما عرفت بعض النساء بدورهنّ المتميز فـــــن التعليم الدينى إذ وصلن الى مرتبة شيخات وقد تتلمذ عليهنّ بعـــض الشيوخ.

ويشير الكاتب الى أهمية دور المرأة حتى بعد ظهور النظـــام الأبوى. فقد ورد ذكر بعض النساء فى أضابير المحاكم فى سلطنـــــة دارفور، كما كان للنساء دور أساسى فى الطقوس التى تواكب حفـــلات تتويج الملوك.وأشارت الدراسة الى العديد من الوثائق التى تؤكـــد مساهمة النساء فى السلطة مباشرة أو عن طريق غير مباشر إذ كـــنّ أمّهات وأخوات أو زوجات لملوك . وتضمّن الجزء الأخير من الدراســـة الاشارة الى بعض الملكات وأدوارهنّ فى السياسة فى القرون الوسطى.

أمّا الفصل الثانى فهو دراسة عن زى المرأة فى شمال السودان لجرزالدا الطيب . قالت الكاتبة أنّ الزّى يعكس الكثير من الخصائص الاجتماعية والتاريخية للمجتمع السودانى وتكهّنت بأنّ ما يحدث فـــى السودان من تحضر سريع وتأثير إعلامى قد يؤدى الى اندثار أنـــواع معينة من الأزياء التى يجب أن تدرّس وتوثق باعتبارها إرثا تاريخيا واجتماعيا.

تتطرّق الكاتبة الى أنّ المتتبّع لاستمرارية ارتداء الثـــوب وما تحته بالنسبة للمرأة قد يظن فى بادىء الأمر أنّ هذه الظاهـــرة لم تتأثر طوال هذه الحقب ولكن الأمر غير ذلك تماما. فمنذ بدايـــة هذا القرن تغيّر لبس الثوب ومادّته وما يصحبه من زى نتيجة لأثـــر الحضارة الغربية وانتشار تعليم البنات ودور وسائل الاعلام وسفـــر بعض النساء السودانيات الى أوربا منذ الخمسينات . وكان لهـــذه الأسباب أثر كبير. فقد ساعدت هذه العوامل فى توسيع وعى المـــرأة السودانية بخيارات وأنواع مختلفة من الأزياء وظهرت بذلك موضـــات تعكس جليا أثر الثقافات الوافدة على زى المرأة.

أشارت الكاتبة الى أثر العوامل التاريخية على الزى،ومـــن تلك العوامل ازدهار التجارة بين مصر والسودان عبر نهر النيـــل، وهى تجارة تأثر شمال السودان بها.كما أنّ التجارة مع جزر الهنـــد قد أثرت على الأزياء فى شرق السودان. كما تأثرت البلاد بمـــــرور الحجّاج من غرب افريقيا والذين يمكثون بعض الوقت قبل مواصلةالسير

الى الأراضى المقدّسة.

تأثر زى المرأة كثيرا بالثورة المهدية حيث أصدر المهدى فرمانا أمر بموجبه النساء بضرورة استعمال الحجاب خارج المنزل. وتطرّقت الكاتبة بعد ذلك لأثر الثقافة الأوربية على زى المرأة السودانية وذلك نتيجة للاختلاط بالنساء الأوربيات والمصريات خاصّة بين أوساط النساء العاملات والطالبات كما ركزت الدراسة على نمو الخرطوم كعاصمة للبلاد حيث ازدهرت أسواقها بالأزياء الأوربية واعتبرت نساؤها من رائدات الموضة بالسودان.

واستعرضت الكاتبة أنواع الأزياء المختلفة للمرأة السودانية عبر الفترات التاريخية التى مرّ بها السودان ثم اختتمت دراستها بذكر أنواع الزينة والعطور التى استخدمتها المرأة عبر التاريخ.

الفصل الثالث من الكتاب والذى كتبته بلقيس بابكر بدرى يدور حول الغذاء واختلاف الأدوار الاجتماعية فى مجتمع الفتيحاب. تقيم قبيلة الفتيحاب فى منطقة ديم أبى سعد التى تقع الى الجنوب من مدينة أمدرمان. تشير الكاتبة الى أنّ للغذاء رمزية ترتبط بالأدوار الاجتماعية إذ أنّ له أهمّية قصوى فى تشكيل العلاقات بين الرجل والمرأة إذ أنّه يرمز بوضوح الى قوامة الرجل على المرأة.

تضمّنت الدراسة الاشارة الى أدوار الرجال والنساء واختلافها بالنسبة للأعمال المرتبطة بالغذاء. إذ نجد اختلافا واضحا فى طريقة الأكل وكمّيته ونوعيته بالنسبة للجنسين. إذ أنّ الرجل يحظى بنصيب الأسد من الطعام فى إطار الأسرة غير أنّ النساء يتناولن أنواعا أفضل منه وبكمّيات أكبر فى المناسبات التى تقتصر على النساء مثل حفلات الزّار، خلاف ما هو متبع من غذاء مختصر ومحدّد فى المناسبات التى تقتصر على الرجال مثل ليالى الذكر. أمّا فى المناسبات المشتركة بين الجنسين مثل مناسبات المآتم والأفراح فعادة ما ينال الرجل كمّيات أكبر ونوعيات أفضل من الغذاء وتكتفى النساء بأكل فضلات الرجال.

أكدت الدراسة أنّ النساء يتناولن فى المناسبات الخاصّة بهنّ كمّيات أوفر ونوعيات أفضل من الغذاء، كما فى مناسبات الحمل والولادة والزّار. وهنّ يلححن على أزواجهنّ بتوفير الغذاء فى هذه

المناسبات الخاصّة. فتلبية الزّفيات فى مثل هذه المناسبات تدعم موقف المرأة وتعاظمه بين رفيقاتها بدعوتهنّ لحضورها حتى يقفن على وضع حياة الواحدة منهنّ. كما توسّع هذه الدعوات علاقات المرأة الاجتماعية وتدعمها.

الفصل الرابع عن المرأة والزّار فى أمدرمان لسامية النقر وهو فى الواقع دراسة اجتماعية لممارسات الزّار فى شمال السودان. قامت الكاتبة بتعريف الزّار على أنّه ممارسات وطقوس تتمركز حول وجود قوّة خفية أو أرواح يعتقد أنّها تسبّب بعض الأمراض النفسية والعضوية للانسان والتى لا يمكن علاجها إلاّ بعد الاستجابة لمطالب هذه الأرواح. تشمل هذه المطالب فى الغالب لبس ملابس خاصّة تمثل الأرواح بالاضافة الى إقامة طقوس معينة تشرف عليها امرأة تقوم بتطبيب المريض يطلق عليها لفظ (شيخة). وتعرّضت الدراسة الى الخصائص الاجتماعية والاقتصادية لمريضات الزار ومدى مشاركتهنّ فى نشاطات وممارسات الزّار.

هنالك عدّة عوامل تدفع المرأة للارتباط بالزّار وأهم هذه العوامل الاصابة بمرض عضوى ونفسى. ونسبة لارتباط بعض الأمراض والعلاج بعالم الروحانيات فى الثقافة السودانية فإنّ المرأة المريضة تلجأ للزّار وذلك فى حالة وجود نساء من الأهل أو الجيران ممارسات للزّار أو توفر المعرفة لديها بأنّ الزّار وسيلة للعلاج. أمّا بالنسبة لكثير من النساء اللاّئى يعانين من مشاكل أسرية فإنّ ذلك قد يؤدى الى ظهور اضطرابات نفسية غالبا ما توصف بأنّها من أمراض الزار وبعد ذلك تطرّقت الكاتبة لاستعراض بعض الأمثلة من الحالات التى قامت بدراستها وذلك لدعم الاطار النظرى لموضوع الدراسة.

فى الفصل الخامس ناقشت الكاتبة محاسن خضر السيد موضوع المرأة والزراعة وتناولت الدراسة مشاركة المرأة فى قوّة العمل فى القطاع الزراعى بمختلف أنواعه فى جميع أقاليم السودان، إذ نجد أنّ مساهمة النساء من العائلات الفقيرة فى شمال كردفان فى الزراعة التقليدية يعدّ أكثر بكثير من العائلات التى تمتلك الأراضى الزراعية والتى تعدّ أحسن حالا من الشريحة الأولى. كما أنّ هنالك مشاركة مكثفة للنساء فى العمليات الزراعية مثل حرق الأعشاب

وتجهير الأرض للزراعة وبذر البذور وما الى ذلك من العمليـــــات .

أمّا فى القطاع الحديث فإنّ دور المرأة قد تاثر بعدّة عوامـل أدّت الى ازدياد فرص التعليم بالنسبة للمرأة مع وجود خيارات عمـل أفضل فى المناطق الحضرية وهجرة الرجال الى المدن إضافة الـــــى العوامل الثقافية مثل التعليم وعادات الزواج والتقاليد والمعتقدات والعادات التى تؤثر على دور المرأة فى مجال العمل الزراعى.

أشارت الدراسة الى أنّ المرأة تقوم بجميع أعبائها المنزلية إضافة الى مشاركتها فى العمل خارج المنزل فى القطاع الزراعـــى. ولذلك ذكرت الكاتبة أنّه على الرّغم من هذا الدور المتعاظم فـــإنّ خطط التنمية قد أغفلت منزلة المرأة فى العمل تماما،ولذلك اختتمت الكاتبة مقالها بأن صاغت العديد من المقترحات التى تنادى بدمـج المرأة فى سياسات التنمية ،وترقية دورها فى العمل الزراعى خاصّـة فى مجال انتاج الغذاء،كما نادت بدعم دورها فى الحياة عامّة حتـى تستطيع المشاركة فى عملية إتخاذ القرار.

فى الفصل السّادس تناول الكاتب حاتم بابكر المرأة والجريمة وقد أرادت هذه الدراسة التى أجريت وسط نزيلات سجن أمدرمـــان أن تتقصّى نوعية الجرائم التى ترتكبها النسوة إضافة الى الظـــروف الاقتصادية والاجتماعية التى أدّت بهؤلاء النسوة الى ارتكاب الجريمة وقرّرت الدراسة الى أنّه لا يوجد اختلاف بين جرائم المرأة وجرائـــم الرجل إلاّ جرائم الخفاض الفرعونى والاجهاض ممّا ترتكبه المـرأة دون الرجل.

أشار الكاتب الى أنّ دوافع ارتكاب جرائم المرأة عديدة منها الحاجة الاقتصادية ،والانتقام من الزوج والعلاقة الزوجية المضطربـة. وقد ذهب الى أنّ الدوافع الثلاثة المذكورة تكون غالبا وراء ارتكـاب جريمة قتل الزوج. كما أشار الى أنّ الدوافع الاقتصادية والعـاطفيـة تؤثر على الحياة الزوجية وأنّ سلبياتها تؤدى الى ظهور حياة زوجية مضطربة. وخلص الكاتب الى أنّه لا يمكن الاعتماد على أضابير الشرطـة والسجون لتحديد جرائم المرأة لأنّ هنالك العديد من الجرائم التـى ترتكبها المرأة بسرّية دون التبليغ عنها،كما أنّ كثيرا من الجرائم تتم تسويتها داخل نطاق الأسرة أو المجموعة خوفا من شيوع خبرهـــا

فى المجتمع.

والفصل السابع عن المرأة والأدب الشفاهى عند الحمر لآسيا محجوب . وناقشت آسيا فى المقال موضوع هجرة مجموعة من قبائل البقارة من منطقة شمال غرب كردفان الى منطقة الخرطوم بحرى ومدى تأثير ذلك على أدب المجموعة الشعبى. نوّهت الدراسة بارتباط الأدب الشعبى عند هذه المجموعة بنمط الحياة الرّعوية وقدّمت شرحا وافيا وأمثلة حيّة لمفهوم الأدب الشعبى عند هذه المجموعة ودور المرأة فى ذلك .

أشارت الدراسة الى أنّ بعض التغييرات طرأة على التقاليد الشفوية وسط مجموعات الحمر التى هاجرت الى الخرطوم بحرى.والشعر والغناء تأثرا بظروف الحياة الحضرية ومن ذلك إدراك الجماعة أهمّية التعليم وورود بعض التعابير عن الأحداث السياسية بالبلاد فى أدبها الشعبى. غير أنّ الأدب الشفوى ظلّ يحتوى على الكثير من القيم والصور التى تجسّد معانى الحياة الرّيفية.

وخلصت الكاتبة الى أنّ الشعر بين مجموعات النساء لم يتأثر كثيرا بنمط الحياة الحضرية وقد عزت الكاتبة ذلك الى عزلة النساء وبعدهنّ عن تجارب وضغوط الحياة الحضرية ، إضافة الى انخفاض معدّلات التعليم بين النساء مقارنة بالرجال.

بعد استعراضنا للمقالات التى وردت فإنّنا نرى أنّ أهمية الكتاب الذى بين أيدينا تنبع من أنّه يحتوى على نتائج أعمال ميدانية تشكل بحوثا اجتماعية لحقب تاريخية تعكس العديد من الجوانب عن حياة المرأة السودانية. وإنّ نشر الكتاب قد وفر للمهتمين بقضايا المرأة مادة علمية قيّمة كان مصيرها أن تحبس فى الأضابير. وأنّه على الرغم من انتشار (موضة) دراسات المرأة فى السودان فى السنين الأخيرة فإنّ مقالات الكتاب تناقش بعض القضايا التى مازالت بعيدة عن محور اهتمام كثير من المهتمين بهذا النوع من البحث . فالكتاب لا غنى عنه للمهتمين بدراسة التغيير الاجتماعى لأوضاع وأدوار المرأة السودانية. وقد يكون الكتاب مفيدا للمهتمين بتطوّر الاطار النظرى لدراسات المرأة إذ أنّ بعض مقالاته تعكس أثر الاتجاه الوظيفى فى هذا الأمر، أمّا البعض الآخر ففيه غياب ملحوظ

للاطار النظرى المحدّد.

وبالرغم من تلك الايجابيات فإنّ هنالك بعض المآخذ العامّة التى يمكن الاشارة اليها دون تحديد لمقالة بعينها وذلك لأنّ هذه المقالات فى واقع الأمر تلخيص لرسائل جامعية رائدة فى مجال المرأة ولأنّ المحرّرة لم تحدّد المنهجية التى اتبعتها فى تحرير هذه المقالات، أصبح من الصعب إلقاء اللّوم فى التقصير على الكاتب أم المحرّرة. هنالك عدم وضوح فى استعمال بعض التعابير مثل كلمة (فصل) والتى وردت فى الكتاب. فقد ترجع (فصل) الى فصل فى الكتاب أو الى فصل فى الرسالة التى قدّمت للدراسات العليا.

وفى الختام نود أن نشير الى أنّه وبالرغم من تلك المآخذ التى أشرنا اليها إلاّ أنّ هذا الكتاب يعتبر توثيقا حيّا لحياة المرأة السودانية ونطمع أن يكون فاتحة خير لمحاولات رائدة فى مجال دراسات المرأة.

سامية الهادى النقر

ألين اسماعيل ومورين مكى، نساء السودان (Women of Sudan)
هندرت درك قمبلت ، ١٩٩٠.

الكتاب محاولة لمعالجة مسألة رأى النساء فى السودان حول نمط حياتهنّ ووضعهنّ فى المجتمع وحول الرجال. يبدأ الكتاب بمقدمة تحوى عرضا لبعض المواضيع العامّة مثل: وضع المرأة القانونى، خلفية لتاريخ المرأة والتعليم، الحركة النسائية بالاضافة الى معلومات حول الخفاض ، الزّار، ومعلومات أخرى حول بعض المؤثرات الثقافية على حياة النساء.

يتعرّض الكتاب بعد ذلك لسيرة ٢٣ امرأة سودانية اخترن حسب رأى الكاتبين لتباين انتماءاتهنّ الاقتصادية ،والتعليمية والثقافية. وقد جرت المقابلات التى بموجبها جمعت هذه السير فى الفترة ما بين ١٩٨٧ وبداية ١٩٨٩.

إذا نظرنا الى المواضيع التى تناولتها السير نجد أنّها مواضيع قالت المؤلفتان أنّها ذات أهمية قصوى بالنسبة للنساء السودانيات فى حياتهنّ اليومية. وتشمل هذه المواضيع وضع وأدوار النساء والرجال فى السودان، المرأة التعليم، المرأة والعمل، المرأة والسياسة ، الحركات النسائية ، الزواج والطلاق، تعدّد الزوجات ، الأسرة ، الأطفال والخفاض .

ممّا لا شك فيه أنّ الكتاب يوفر لنا مادة غزيرة تؤهلنا لمعرفة آراء النساء فى المواضيع التى أشرنا اليها أعلاه. وتكمن أهمية هذه المعلومات فى أنّها تشكل مادة غنية يمكن الاستفادة منها فى مجال البحث والتدريب حول المرأة السودانية على وجه الخصوص .

ومع ذلك فلى بعض التحفظات على مساهمة الكتاب . فالمقدمة عامّة جدا لم تساعد فى رسم أطار فعّال لفهم سير النساء السودانيات التى تضمّنها الكتاب . وفشلت المقدمة بالتحديد فى اعطائنا أى مؤشرات حول تاريخ السودان والاقتصاد السياسى للمجتمع السودانى اللّذين لا يمكن الاستغناء عنهما فى أى محاولة لفهم وضع المرأة المعاصر فى السودان. ونجد أنّ المقدمة والكتاب عامّة يركزان على مضمون الثقافة الشمالية الحضرية العربية الاسلامية. فلا غرابة أن

وجدنا المناقشات تدور حول الاسلام والخفاض ، الزّار،ونحو ذلك . وهى مواضيع يقل تأثيرها على حياة المرأة فى بقية الثقافات السودانية.

وأهملت المقدمة مناقشة عدّة مواضيع هى فى رأيى من أهم المواضيع التى تؤثر على حياة المرأة فى المجتمع السودانى. وتشمل هذه المواضيع موضوع المرأة والعمل بالاضافة الى أثر الكوارث مثل الحرب فى الجنوب وموجات الجفاف والتصحّر على المرأة فى السودان. ولم يخل الكتاب من أخطاء مطبعية ربما نتجت عن طبع الكتاب الانجليزى فى ألمانيا.

ولا تنتقص هذه التحفظات من أهمية الكتاب نسبة لأنّه حفل بزاد من المعلومات لا غنى عنه لمعلّم عن قضية المرأة أو دارس لها.

زينب البكرى